"التحصينات الدفاعية أو الربط في عهد المرابطين"

الأستاذ الدكتور/ لحسن تاوشيخت

المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، الرباط/ المغرب.

الملخص:

انتقل مفهوم التحصينات الدفاعية عبر تاريخ المغرب الأقصى – منذ منتصف القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي- من المرابطة ومدافعة العدو إلى قلعة متقدمة في الفتح وتوسيع دائرة دار الإسلام، ثم إلى محطة إستراتيجية للمراقبة وأخيرا إلى خلوة للتعبد والزهد. وقد اعتمد المرابطون الصنهاجيون أو الملثمون، منذ بداية دعوتهم على يد زعيمهم الروحي عبد الله بن ياسين، على مبدأ الرباط والمرابطة. هذا المبدأ انتقل مع تطور الحركة المرابطية من مجرد مجمع لتلقين التعاليم الدينية إلى فكر سياسي وعسكري يراد به التحصين والمدافعة، بل والمحافظة على أمن تنقل ليس فقط الجيوش المرابطية من الجنوب نحو الشمال وبالتالي العبور نحو الأندلس وإنما أيضا ضمان تدفق تجارة القوافل التي كانت بمثابة المورد الأساسي والضروري لخزينة الدولة في تمويل عملياتها العسكرية.

ولبلوغ هذه الأهداف شيد المرابطون العديد من الرُبط التي يطلق عليها بالمغرب الحصون أو القصبات أو القلاع على طول جبال الأطلس لمراقبة الممرات الإستراتيجية، مما كان له الأثر الكبير في نجاح مشروعهم السياسي والعسكري المتعلق بتوحيد المغارب والأندلس تحت سيادتهم ولو إلى حين، وهو نفس التخطيط الذي اتبعه خلفهم الموحدون.

توطئة:

اتخذت لفظة "رباط" في كتاب لسان العرب من الناحية الاصطلاحية معنى الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل بإعدادها، وهي لغة ملازمة ثغر العدو[1]. وتطلق كلمة الرباط عند المؤرخين والآثاريين على بناءات على شكل حصون وقلاع ظهرت مع بداية الفتوحات الإسلامية، وكان الهدف منها مراقبة العدو وصده عن ثغور الإسلام. وكانت تقام هذه الرُبُط أو الرباطات على نقط الحدود البرية والبحرية التي تفصل الفاتحين مع غير المسلمين. كما عرفت بعض التجمعات ذات الصبغة التعبدية بهذا الاسم كما هو الشأن بالنسبة لرباط المرابطين بزعامة الداعية عبد الله بن ياسين، هذا الرباط الذي أقيم في جنوب الصحراء، ابتداءً من عام 1039 ميلادية. فقد قاد عبد الله بن ياسين وهو قاضي وفقيه مالكي، حركة جهادية لنشر الدين الإسلامي بناءًا على مبادرة من زعيم قبيلة جدالة. وقد جمع ابن ياسين أتباعه من الرجال الذين كانوا يلزمون الرباط (يرابطون)، وهي قاعدة جهادية ومكاناً للانعزال الروحي، وأطلق عليهم بذلك اسم "المرابطين" أو رجال الرباط، فأصبحوا فيما بعد يعرفون بالـــمرابطين.

وخلال القرن السادس الهجري الموافق 12 الميلادي ومع انتشار الحركة الصوفية ببلاد المغرب ظهرت رباطات المتصوفة داخل المدن وخارجها، وكانت بمثابة أماكن للزهد والخلوة ومأوى للمريدين وعابري السبيل. وبذلك يمكن القول إن كلمة الرباط يختلف معناها حسب الوظيفة التي أُستعملت من أجلها: من مكان للعبادة وذكر الله، إلى ثغر للجهاد، مرورا بمركز لمراقبة سير قوافل التجارة ومواكب الجيش.

---

1) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**، بيروت 1997 الجزء 7 حرف الطاء (ص 302)

1. الرباطات الأولى:

عرف المغرب الأقصى الرُبُط منذ فتوحات القائد عقبة ابن نافع الذي توجت انتصاراته ونشره للإسلام بين قبائل المغرب ببناء عدة مساجد اتخذت شكل ربط ومن ذلك تذكر المصادر التاريخية بشكل خاص "رباط شاكر" بحوز مدينة مراكش على ضفة واد النفيس. ويذكر ابن الزيات صاحب كتاب التشوف إلى رجال التصوف أن رباط شاكر بناه يعلى بن مصلين الرجراجي لقتال البورغواطيين في تامسنا وكان مجمعا للصلحاء [1]. كما أُستغلت المواقع الرومانية القديمة نظرا لحصانتها من أجل إنشاء رُبط. ومن الأمثلة على ذلك رباط شالة أو سلا على الضفة اليسرى لنهر أبي رقراق والذي اتخذه المجاهدون ثغرا لمحاربة بورغواطة. وفي هذا يرد ابن حوقل أن "الناس يسكنون ويرابطون برباط (شالة) وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون وينقصون ورباطهم على بورغواطة"[2]. ومن جهته يذكر البكري العديد من الرُبط مثل أصيلا والعرائش وأكوز ونكور وتيط، والتي كانت عبارة عن موضع يتوسطه مسجد أو رابطة للعبادة والتعبد فضلا عن كونها نقط لقاء للتبادل التجاري[3]. وذكر ابن الزيات في كتابه التشوف أحد عشر رباطا منها رباط أكوز عند مصب واد تانسيفت، ورباط تاشفين أو بني تركة (الرباط الحالية)، ورباط أبي داوود على البحر المتوسط قرب الحسيمة والذي شيده الشيخ داوود مزاحم بن علي بن جعفر البطيوي التمسماني أحد مريدي الغوث شعيب أبي

---

1) ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يجى التادلي: **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**. تحقيق أحمد التوفيق. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة محمد الخامس "نصوص ووثائق 1" 1984 (ص 51)

2) ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي: **صورة الأرض**. بيروت، مكتبة الحياة، الطبعة الأولى 1979

3) البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد: **كتاب المسالك والممالك**. بيروت، دار الغرب الإسلامي 1992

مدين، ورباط تيط–ن–فطر (عين الفطر) على ساحل البحر الأطلسي جنوب مدينة مازاغان (الجديدة الحالية)، ورباط تينمل بالأطلس الكبير قرب مدينة مراكش والذي شكل مهد الدعوة الموحدية بزعامة المهدي ابن تومرت، ورباط تانوتن بسهل دكالة، ورباط ياسماطت بضاحية مراكش، ورابطة أنبدور بناحية سجلماسة، ورابطة تامنغطت قرب أنفا (الدار البيضاء الحالية)[1].

أ) رباط شاكر:

وينسب إلى شاكر بن عبد الله الأزدي وهو من التابعين وكان مرافقا للقائد عقبة ابن نافع الفهري سنة 62 هـ / 681 م، بل وهو الذي خلف عقبة على بلاد المغرب بعد عودة هذا الأخير إلى المشرق، فاستقر بنواحي مراكش ببلاد الحوز وقام هناك بنشر الإسلام بين قبائل مصمودة. ومن ذلك التاريخ شيد هذا الرباط الذي يعتبر لحد الآن أحد أقدم الرُبط بالمغرب الأقصى والذي اتخذه أنصاره من بعد وعلى رأسهم يعلى بن مصلين الرجراجي منطلقا لمحاربة بورغواطة بمنطقة تامسنا خلال بداية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي. ويذكر صاحب التشوف أن من عادة أهل العلم والتصوف بالمغرب السفر في كل رمضان إلى هذا الرباط من أجل ختم القرآن الكريم، كما كانت تقام فيه منابر الوعظ وحلقات الدرس لنشر الإسلام وتثبيت تعاليمه في نفوس قبائل مصمودة وغيرها من القبائل المجاورة[2]. وقد كانت هذه اللقاءات محط اهتمام بالغ من لدن أتباع العديد من الطرق الصوفية الذين كانوا يقدمون إليها من جميع جهات المغرب للتعارف وتبادل الآراء بشأن مذاهب أكابر المشايخ وطرقهم في التربية الصوفية والسلوك الأخلاقي، ومن أجل دراسة المؤلفات

---

1) ابن الزيات التادلي، يوسف: المصدر السابق (الصفحات: 126، 218، 262، 316، 354، 374، 385، 394، 402، 425)

2) ابن الزيات، يوسف: المصدر السابق (ص 51).

المعتمدة في أوساطهم. وقد ظل هذا الرباط محافظا على دوره في مجاهدة العدو ومجاهدة النفس حتى بداية العصر الحديث وقام بتجديده السلطان العلوي محمد بن عبد الله أثناء بنائه لمدينة الصويرة. ويحظى هذا الرباط بعناية خاصة من طرف وزارة الأوقاف حيث تم ترميمه وتجديده، كما أُجريت فيه عدة تنقيبات أثرية، وفيه يُعقد بشكل غير منتظم مجمع عالمي للمتصوفة يطلق عليه "ملتقى سيدي الشيكر العالمي للمنتسبين للتصوف". وقد كانت تُنظم لقاءات سيدي الشيكر أول الأمر في شهر رمضان كل عامين من أجل إتاحة فرصة التعارف فيما بين القائمين على المؤسسات العاملة في مجال التصوف قصد إعادة إحياء وظائفها الروحية والتربوية المعهودة. ثم اتخذت هذه التظاهرة صبغة عالمية تهدف إلى ربط الصلة بين المنتسبين في المغرب ونظرائهم في مختلف بلدان العالم من أجل ابراز أهمية التصوف في تجسيد قيم الأخلاق الرفيعة المستمدة من الكتاب والسنة.

ب) **رباط عقبة:**

يقع هذا الرباط ضمن مجال قبائل مصمودة بالأطلس الكبير الغربي بمحاذاة واد النفيس. ويذكر ابن عذاري أن هذا الرباط هو عبارة عن مسجد بناه عقبة على وادي النفيس[1]. وحسب البكري يعود تاريخ تأسيس هذا المسجد إلى سنة 62 هـ / 681 م[2]. وقد أُسس هذا الرباط في سياق الفتوحات الإسلامية بهدف نشر الإسلام وتعاليمه السمحة بين قبائل مصمودة،

1) ابن عذاري، أبو العباس المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**. بيروت، دار الثقافة 1985 [قسم الموحدين] (ص 27)

2) البكري، أبو عبيد الله: المصدر السابق (ص 160)

قبل أن يُتخذ فيما بعد كرباط لمحاربة قبائل بورغواطة الضالين والخارجين عن الدين حسب أهل الرباط[1].

ج)رباط ماسة:

هذا الرباط اختلطت في التعريف به المصادر المكتوبة بالرواية الشفوية وفي كثير من الأحيان بالأساطير، حيث يربطه ابن عذاري بتلك اللحظة التاريخية التي وصل فيها عقبة ابن نافع إلى أقصى نقطة في فتوحاته بالمغرب الأقصى حيث لم يجد أمامه سوى بحر الظلمات. يقول ابن عذاري نقلا عن أبي علي صالح بن أبي صالح: "ثم سار عقبة من إجلي حتى وصل ماسة فادخل فرسه في النهر حتى وصل الماء تلابيبه وقال: السلام عليكم يا أولياء الله، فقال له أصحابه على من تسلم؟ قال: على قوم يونس عليه السلام، ثم قال: اللهم إنك تعلم أني لم أطلب إلا ما طلب عبدك ووليك ذو القرنين ألا يعبد في الأرض غيرك"[2]. ويذكر اليعقوبي في كتابه معجم البلدان أن "ماسة قرية على البحر تحمل إليها التجارة وفيها المسجد المعروف بمسجد بهلول وفيه الرباط على ساحل"[3]. واعتبارا للرمزية التاريخية لهذا الرباط فقد كتبت عنه عدة روايات منها ما أشار إليه صاحب كتاب الحلل الموشية من كون هذا الرباط عرف في عام 542 هـــ حركة مهدوية ذاع صيتها بالمغرب الأقصى وذلك بزعامة محمد

---

1) ابن الزيات: المصدر السابق (ص 52)

2) ابن عداري : المصدر السابق (ص 27)

3) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن وحيد الكاتب: **كتاب البلدان**. تحقيق دي كوخ، القاهرة، المطبعة الحيدرية 1957 (ص 360)

بن عبد الله بن هود الماسي[1]. كما يؤكد ابن خلدون أن العامة في سوس يعتقدون أن المهدي المنتظر سيخرج من رباط ماسة[2].

ويذكر محمد بن الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا[3]: " ويوجد في خارج ماسة على شاطئ البحر مسجد يقدسه الناس كثيرا..." ثم يضيف في نفس المكان " أن النبي يونس (عليه السلام) لما ألتقمه الحوت نبذ بالعراء في ساحل ماسة وجمع العوارض التي تحمل سقف هذا المسجد من عظام سمك ضخم ... وكثيرا ما يهيج البحر فيحدث أن يقذف على شاطئ ماسة بعدد من السمكات من هذا النوع قرب المسجد إلا وماتت بسبب البركة التي منحها الله لهذا المسجد... ولا عجب في ذلك، إذ يوجد في البحر على بعد نحو ميلين من البر بعض الصخور العظيمة الحادة، فإذا هاج البحر ذهبت هذه السمكات هنا وهناك ومن اصطدم منها بتلك الصخور جرح ومات، ولهذا ينبذه البحر بعد ذلك على الساحل حيث نراه، فظهر لي هذا التأويل خير من تأويل العامة " وهذه المعاينة والشهادة كافية للتأكيد على أن هذا المسجد له مكانة مقدسة في نفوس العامة بل تم ربط بركته بقوة البحر الذي يقذف بأسماك ضخمة إلى الشاطئ.

وبقي هذا الرباط إلى غاية القرن السادس عشر الميلادي يحظى بتقديس خاص من طرف الزوار الذين كانوا يترددون على مسجده الذي

---

1) مجهول: **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**. الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة 1979 (ص 146)

2) ابن خلدون، عبد الرحمن: **المقدمة**. بيروت، دار القلم، الطبعة الأولى 1978.

3) الوزان، محمد بن الحسن الفاسي: **وصف إفريقيا**. تحقيق وترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. الرباط، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، الجزء الثاني 1982.

أدى تراكم الرمال في مصب الوادي إلى تغطيته. ويحدد مكانه حاليا بأكوام ونطاقات من الحجر تصلي عليه النساء أثناء الزيارات التي يقمن بها إلى هذا المكان.

2. الرُبُط المرابطية (1056 – 1147م):

يرجع أصل المرابطين إلى قبيلة لمتونة الصنهاجية التي تزعمت حركة دينية وسياسية بزعامة عبد الله بن ياسين والتي تحكمت في البداية على طرق القوافل التجارية التي تعبر الصحراء، ثم استطاعت إخضاع سجلماسة عام 1054م وأغمات عام 1058م. وبعد وفاة عبد الله بن ياسين عام 1059م، تولى أبو بكر بن عمر قيادة الجيوش المرابطية في مواجهة مملكة غانا حيث قضى نحبه، فخلفه يوسف ابن تاشفين. هذا الأخير استطاع أن يخضع تحت إمرته كل البلاد الواقعة بين الساحل الغربي للمغرب الأقصى والمغرب الأوسط، وأتخذ من مراكش التي أسسها حوالي عام 1070م، عاصمة له، وأطلق على نفسه لقب أمير المسلمين. كما استعاد وحدة الأندلس بعد انتصاره في معركة الزلاقة الشهيرة عام 1086م. وبذلك أنهى بها حكم الطوائف.

كانت الإمبراطورية المرابطية مترامية الأطراف تملك جهازاً إدارياً منظماً بطريقة مركزية، يترأسه كبار المسؤولين المرابطين. كما كانت هذه الإمبراطورية تستفيد من مداخل تجارة القوافل سواء مع مدن جنوب الصحراء الكبرى أو مع أهم الموانئ شمال البحر الأبيض المتوسط. وقد عرف عن المرابطين دورهم الكبير في الدفاع عن حوزة دار الإسلام بالغرب الإسلامي وأيضا بتشييدهم للعديد من الحواضر والعمارات الدينية سواء بالمغرب الأقصى أو بالمغرب الأوسط. وهكذا لم يتوانوا في إقامة الرباطات والتحصينات العسكرية، كإحاطة المدن بالأسوار أيام علي بن يوسف بإيعاز من ابن رشد الأندلسي. وقد تأثرت العمارة عند المرابطين بفنون العمارة الأندلسية، بالإضافة إلى التأثيرات

المشرقية. ومن أهم بقايا العمارة المرلبطية يمكن ذكر على سبيل المثال لا الحصر جامع تلمسان وجامع ندرومة، أما أهم الرباطات المرابطية فهي كما يلي:

أ) رباط مراكش:

ويعتبر النواة الأولى لمدينة مراكش العاصمة المرابطية، وكان الهدف من بنائه السيطرة على الطرق المؤدية إلى جبال الأطلس. ومن هذا الرباط البدائي انطلقت أولى الفتوحات العسكرية، حيث شرع قائد المرابطين أبو بكر ابن عمر في بناء قصبة أطلق عليها اسم الحصن الحجري على مقربة من موقع الكتبية. وكان أبو بكر قد استشعر بعد أن دخل وادي تانسيفت واستقر فيه أن هذا الجزء الشمالي من ملكه غير آمن ومحصن، وأنه يحتاج إلى قاعدة تكون حصنا ضد الأخطار المحدقة من الشمال من ناحية بورغواطة، ومن الشرق من ناحية بني زيري أصحاب قلعة بني حماد ومن قبيلة مغراوة الزناتية التي كانت تبسط سلطتها على مدينة فاس وحوض نهر سبو [1]

وقد اختار أبو بكر أن تُقام قاعدته على موقع في جنوب السفوح الشمالية لجبال الأطلس وسط سهل يشقه المجرى الأعلى لنهر تانسيفت. وقد بدأ أبو بكر ابن عمر في بناء مراكش عام 451 هـ / 1060 م، وأتمها يوسف بن تاشفين من بعده. وما كاد بناء هذه المدينة يتم حتى تحولت إلى مركز من مراكز الحضارة الإسلامية في جنوب المغرب الأقصى. وقد تطورت مراكش تطورا سريعا خلال العصر المرابطي فأنشئت فيها المساجد والأسواق، وقد اعتمدت في الحصول على حاجتها من الماء على مجار تحت أرضية "خطارات". وظلت مدينة مراكش معسكرا حربيا، وقاعدة عسكرية لقوات

1) ابن عبد الله، عبد العزيز: "معطيات الفن الإسلامي في المغرب". **مجلة المناهل**. العدد الثالث 1956 (ص 56).

المرابطين إلى أن حاصرتها قوات الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي عام 541 هـ / 1147 م.

تتميز مدينة مراكش بأسوارها التي أقيمت مع نشأة النواة الأولى، فعندما أسس يوسف بن تاشفين مراكش أقام سورا صغيرا يحيط بالمسجد الجامع وبقصبة صغيرة كي يختزن فيها أمواله وسلاحه. وظلت المدينة بدون سور يحيط بها من جميع لجهات إلى أن تولى علي بن يوسف السلطة، حيث شرع في بناء السور حولها من أجل حماية المدينة. فأمر "الصناع والفعلة والمهندسين في الحال ببناء السور، فاكتمل البناء في ثمانية أشهر وبلغ جملة ما أنفق على السور ما يقرب من سبعين ألف دينار من الذهب. وقد أضيف إليه وزيد فيه عدد من الأبراج عام 530 هـ / 1136 م حتى أصبحت تحيط بمقابر المدينة [1].

إلى جانب عاصمتهم مراكش، اهتم المرابطون بتشييد القلاع والحصون وكانت هذه المنشآت تبنى من الحجر في المناطق الوعرة حتى لا يستطيع الغزاة الوصول إليها في يسر وسهولة. وكان ا لمرابطون يشحنون هذه القلاع والحصون بالأقوات حتى تصمد للحصار مدة طويلة، وكانوا يعهدوا بالدفاع عنها لأحد قادة قبيلة لمتونة، تساعده قوة تتألف في الغالب من مائتي فارس وخمسمائة راجل. ومن أشهر هذه القلاع قلعة تاسغيموت وتقع على بعد ثلاث كيلومترات جنوب شرقي مراكش، وقد بناها ميمون بن ياسين، وكانت ترابط بها حامية مرابطية تتألف من مائتي فارس وخمسمائة راجل لحراسة قبائل هزرجة. ويخبرنا مؤرخ الدولة الموحدية البيدق في كتابه "أخبار المهدي" "أن

1) مرعي، حمدي: **تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين –دولة علي بن يوسف المرابطي–**. الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1986 (ص 370-371)

المرابطين ومن بعدهم الموحدين شيدوا أكثر من 23 حصنا أو قصبة في مجال الأطلس المتوسط بالقرب من العاصمة مراكش[1].

ب) قصبة الأوداية:

تعد قصبة الأوداية من أهم المعالم التاريخية لمدينة الرباط وتحتل موقعا إستراتيجيا وحصينا يطل من جهة على المحيط الأطلسي ومن جهة أخرى على مصب وادي أبي رقراق ومدينة سلا. ورغم أن تاريخ بداية الاستقرار بهذا الموقع غير معروف بدقة، فإن المصادر التاريخية تتحدث عن وجود قلعة محصنة تم تشييدها من طرف المرابطين لمحاربة قبائل بورغواطة. ويشير ابن حوقل خلال النصف الثاني من القرن العاشر إلى وجود قلعة عسكرية تحمل اسم قصر بني تاركة على مصب نهر أبي رقراق. ومن جهة أخرى تذكر المصادر التاريخية أن الأمير المرابطي تاشفين بن علي عمد في سنة 1140 م إلى بناء قصبة لمواجهة المد الموحدي[2]. وبالفعل كشفت الحفريات التي أقيمت مؤخرا بهذا الموقع عن بقايا القلعة المرابطية. في سنة 1146 م سيطر الموحدون على القصبة المرابطية، وفي سنة 1150 م أمر السلطان عبد المومن بن علي ببناء قلعة عسكرية على الضفة اليسرى لوادي أبي رقراق أطلق عليها اسم المهدية[3]، نسبة إلى زعيمهم الروحي المهدي ابن تومرت. أصبحت هذه القلعة تلعب دورا سياسيا هاما

---

1) البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي: **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**. الرباط، دار المنصور 1971 (ص 93)

2) ابن عذارى: المصدر السابق (ص20). مجهول: **الحلل الموشية**، مصدر سابق (ص 112)

3) وكان يوجد في محل المهدية برج الأوداية ولعله عتيق من عهد الرومان أو هو قصبة تاشفين المرابطي راجع: أبو بكر الزهري (محمد): **كتاب الجغرافية**. دمشق 1986 (ص192) وقصبة الأوداية لأبي جندار تسمى قصبة الرباط الأثرية راجع: مقدمة الفتح من **تاريخ رباط الفتح** لبوجندار الرباط 1345 (ص39) ويقال بأنها كانت تحمل هذا الاسم قبل نقل الأوداية إليها. المهدية المجاورة لمدينة سلا راجع : **المن بالإمامة** (ص444) هي قصبة الودايا وقد سماها عبد المومن مهدية متاع بن مليح وبها دار الخليفة راجع: **معجم البلدان** (ص446) و**صبح الأعشى** ج5 (ص169).

حيت أستقر بها السلطان عبد المومن مرات عديدة وكان يستقبل بها الوفود الرسمية، كما بدأ منها الإعداد للعبور إلى الأندلس. لكن دورها بدأ يضمحل بعد وفاة مؤسسها، وفقدت مكانتها لصالح مدينة رباط الفتح المجاورة التي أسسها خلفه أبو يوسف يعقوب المنصور.

وبعد الموحدين أصبحت القصبة مهملة إلى أن استوطنها النازحون من الأندلس "الموريسكيون" الذين أعادوا إليها الحياة ودعموها بأسوار محصنة. وفي عهد العلويين عرفت قصبة الأوداية عدة تغييرات وإصلاحات تتجلى خاصة في الأسوار المشيدة من طرف السلطان المولى الرشيد، والقصر الأميري الذي يقع غربا وكذلك التحصينات العسكرية ويمثلها خاصة برج الصقالة.

ج) قلعة أمركو:

تقع قلعة أمركو على جبل يحمل نفس الاسم بجماعة مولاي بوشتى دائرة قرية بامحمد في اقليم تاونات على بعد حوالي 50 كلم شمال غرب مدينة فاس. وتمثل أهم منشأة دفاعية مرابطية وواحدة من مجموعة من القلع التي بناها المرابطون (1056- 1147 م) لمواجهة الصعود اللافت لقوى الموحدين المعارضة، فقد أنشئت في موقع استراتيجي يشرف على هضبة ورغة وعلى المناطق المجاورة. وتتحدث المصادر عن دور مرحلي لهذه القصبة في منتصف القرن 12 م : ففيما بين سنتي 1141-1142 م، كانت أمركو على رأس خط الدفاع لمواجهة الهجوم الموحدي، بينما أصبحت في عامي 1145-1146 م ملجئا حين فر إليها المرابطون للاحتماء بها بعد سيطرة الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي على مدينة فاس. بعد ذلك بزمن قليل، سقطت القصبة في أيدي الموحدين، و منذ ذلك الوقت، لم يعد لهذه المنشأة ذكر مفصل في المصادر التاريخية.

تشكل قصبة أمركو نموذجا فريدا بتصميمها وتنظيم مجالها وتقنيات بنائها، فقد بنيت أساسا بالحجر المنحوت، بينما اتخذ تصميمها شكلا مستطيلا يغطي كل المساحة التي تعلو المرتفع الصخري الذي شيدت عليه. وتعد قلعة أمركو من أهم البقايا التحصينية المرابطية، حيث أن مجموع البناية مشيد بالحجارة المتوسطة الحجم مرتبة بإحكام ويجمع بينها لماط من الجير والرمل.

وكان يعتقد في الماضي أن القصبة من بقايا المعالم الرومانية أو البرتغالية نظرا لهندسة أبراجها الدائرية، إلا أن الدراسات الأركيولوجية التي قام بها بعض الباحثين الفرنسيين و على رأسهم ليفي بروفنصال Levi-Provinçal وهنري تيراس H.Terrasse أكدت أن القلعة يعود تاريخها إلى العصر المرابطي وبالضبط في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي [1].

تحتوي قلعة أمركو على تحصينين : الأول خارجي يبلغ سمك سوره ما بين 1،35 و1،45 مترا، كما يتوفر على اثني عشر برجا دائريا وأربعة أبواب بالشمال الشرقي للقلعة وباب أخر بالجهة الغربية وفي خط الدفاع الأمامي من ناحية الشمال الشرقي بين برجين بينهما سور لتدعيم دفاع هذه الجهة.

وللاستفادة من تضاريس هذا المرتفع، تتبع الأسوار خط الحافة لمضاعفة الزوايا المحصنة التي تتم مراقبتها بواسطة اثنتي عشر برجا مختلفة الأبعاد حسب موقع كل برج. ويتم الولوج إلى داخل القصبة عبر أبواب ذات مداخل مستقيمة. تؤدي هذه الأبواب داخل القصبة إلى قاعة أولى مستطيلة الشكل في الشمال، ثم على القاعة الثانية المربعة الشكل في الجزء الجنوبي- الشرقي. في

---

1) Lévi-Provençal, Evariste : « les ruines almoravide du pays de Al d'Amergou », et Terrasse, Henri : « la forteresse almoravide l'Ouergha », 1918، (p. 194) ***Bulletin Archéologique*** Tome XVIII, 1953 (p. 389)، ***Andalus***

وسط القصبة، نجد بناية ثالثة جد محصنة يحيط بها برجان إضافيان وهي مخصصة لسكن قائد الحامية، كما توجد في داخل القصبة آثار العديد المطامير لحفظ المواد الغذائية.

أما بالنسبة لإمداد القصبة بالماء، فيبدو أن هناك جبا لتخزين المياه بُني في الجزء الجنوبي-الشرقي للساحة الوسطى الكبيرة، وتوجد بها كذلك آثار بنايات مهدمة أخرى. أما الباب الرئيسي للقلعة فقد بني بالأجور وهو عبارة عن مدخل ذو قوس محدب الشكل.

د) إكدمان آيت سدرات:

تعني كلمة "أكديم" باللغة الأمازيغية الارتفاع والعلو المشرفين على مناطق واسعة مجاورة وهي بذلك تدل على مباني عمرانية تستخدم للدفاع والمراقبة والتحصين وحراسة القصور والمزروعات والسواقي خلال فترات غياب الأمن. والحديث عن أبراج المراقبة "إكدمان" كبقايا النظام الدفاعي التقليدي وكمباني عمرانية، يكتسي أهمية أثرية و تاريخية كبيرة، لكونها لعبت أدوارا سياسية دفاعية حتى ماض قريب بمنطقة آيت سدرات الواقعة في عالية وادي دادس بإقليم ورزازات على السفوح الجنوبية للأطلس الكبير الأوسط.

يبقى من الصعب جدا معرفة تاريخ مضبوط يحدد أصول هذه الأشكال المعمارية بسبب ندرة النصوص المكتوبة وتبقى الذاكرة الجماعية أو الرواية الشفوية المصدر الوحيد حول هذه الأبراج. أول إشارة مكتوبة وردت عند البيدق في مؤلفه "أخبار المهدي بن تومرت" تشير إلى أن المرابطين والموحدين شيدوا أكثر من 23 حصنا أو قصبة في مجال الأطلس المتوسط بمقربة من العاصمة المرابطية مراكش[1] . ويذكر شارل دوفوكو Charles de

1) البيدق، أبو بكر علي: المصدر السابق (ص 90-93)

Foucauld أثناء مروره بوادي دادس سنة 1884م أنه رأى العديد من البنايات الغريبة التي قد شاهد بعض أنواعها عند آيت سدرات بوادي درعة [1]. إنها بقايا النظام التقليدي الدفاعي، وتمتد جغرافيا من وادي درعة إلى تافيلالت مرورا بوادي دادس وتودغة وفركلة وشكل وجودها وآثرها بكثرة في عالية وسافلة وادي دادس. وهي إحدى السمات الأساسية للوضع السياسي والعسكري الذي كان سائدا في مناطق جنوب شرق البلاد، خلال الربع الأخير من القرن 19م [2]، حيث الصراعات حول المجال بين القبائل المحلية، فضلا عن فترات الجفاف والأزمات الطبيعية العصيبة التي عاشتها المنطقة. كل هذه العوامل وغيرها أدت بالسكان المحليين خلال فترات تاريخية طويلة امتدت حتى النصف الثاني من القرن 19 إلى تشييد هذه الأبراج لمواجهة الهجمات الخارجية.

يقام إكدمان على حدود القصور وعلى جنبات الوادي، قريبا من المجاري المائية (السواقي) والسدود الصغيرة وفي وسط الحقول الزراعية وفي أماكن عالية وتكون منعزلة. إن اختيار الموقع يكون من الخطط الأولية للبناء حيث يراعى مدى المراقبة والتحصين الطبيعي. وتختلف مواد البناء من مكان إلى آخر، عادة تبنى بالتابوت أو الطوب، أما المبنية بالأحجار فهي قليلة بالإضافة إلى التراب والأخشاب والقصب. تأخذ الأبراج أشكالا مختلفة من المربع إلى المستطيل إلى الدائري والهرمي. كما تختلف أيضا في الطوابق إلا أنها عادة لا تتجاوز ثلاثة، وميزتها قلة النوافذ واحتوائها على شرفات ذات ثقب كثيرة

---

1) De Foucauld, Charles: « Reconnaissance au Maroc (1883-1884) », **Les Introuvables**. Paris, (pp 214-215) 1985 éditions d'Aujourd'hui

2) حمام، محمد: **جوانب من تاريخ وادي دادس وحضارته**. الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية 2002 (ص 121).

لقذف الأعداء بالبارود، ويكون لها مدخل واحد، عادة ما يكون مرتفعا عن سطح الأرض ببضع سنتمترات. يصل علو الأبراج ما بين 10 و15 مترا، ويفوق عدد الأبراج في وادي دادس عامة وآيت سدرات خاصة 28 برجا لازالت آثارها بارزة في مواقع مختلفة.

هـــ) تارودانت:

دخلت تارودانت تحت النفوذ المرابطي سنة 448 هـــ/ 1056 م فعرفت بالتالي استقرارا سياسيا وازدهارا اقتصاديا ونهضة عمرانية، وأصبحت مركزا إداريا يتحكم بواسطتها المرابطون في شؤون سهل سوس وجبال درن. وقد عين عليها يوسف بن تاشفين ابنه تميم واليا، فاستأنفت المدينة منذ هذا التاريخ دورها كنقطة التقاء للطرق التجارية الآتية من جنوب الصحراء، وهو ما جعلها تستقطب عناصر بشرية متنوعة الأصول (أمازيغ، وأندلسيين، وأفارقة ويهود)، وتشهد رواجا تجاريا وحرفيا هاما. كما نالت في عهدي يوسف بن تاشفين وابنه علي بن يوسف عناية خاصة، حيث اهتما بتحصينها و استصلاح أراضيها الفلاحية، وإلى هذا العهد يرجع بناء سور المدينة القديم.

ولعبت تارودانت خلال هذا العصر دورا كبيرا في الخطط الحربية للمرابطين، حيث كانت تشكل قاعدة عسكرية متقدمة لمراقبة قبائل مصمودة بالأطلس الكبير، وبها كذلك كانت تستقر القوات المرابطية التي كانت تخرج لمحاربة أنصار المهدي ابن تومرت عند بداية الحركة الموحدية.

و) قصر أمزرو:

يقع قصر أمزرو قرب مدينة زاكورة بالجنوب الشرقي للأطلس الكبير وبالضبط في سفح جبل زاكورة الذي تتخلله قمتين من 971 مترا و1030 مترا، يقطعهما ممر بمحاذاة مجرى وادي درعة. ويعتبر هذا القصر المحدد الأساسي لكل الطرقات والمسارات الحيوية سواء منها الشمالية – الجنوبية أو الشرقية-

الغربية. كما اعتبر منذ القديم موقعا أساسيا تم استغلاله من طرف كل من مروا بالواحة كمركز للمراقبة، بفضل إطلاله على كل الواحات، فهو من جهة يتحكم في المنبع المطل على الواحات الشمالية ومن جهة ثانية في مياه المصب بالواحات الجنوبية. وكان يؤمن مراقبة الأراضي المتاخمة للواحات، والتي كانت غالبا ما تتعرض للغزو من طرف الرحل المحاربين خاصة والتي دامت قرونا مديدة إبتداءا من القرن الثالث عشر الميلادي. وحسب الرواية الشفوية فإن قدوم المرابطين إلى الواحة، كان بدعوة من أهل درعة آنذاك وذلك حوالي 1147 هـ/1056 م بحيث كانت الواحة منطلقا للاستيلاء على كل المناطق المجاورة. وفي منتصف القرن الحادي عشر وبعد السيطرة على منطقة درعة تم إنشاء حصن أمزرو في سفح جبل زاكورة بمحاذاة الوادي من الجهة الشمالية الشرقية بهدف مراقبة قدوم أي خطر من الجهة الشمالية، كما شيد هذا الحصن ليرغم كل العابرين على ضرورة اجتياز هذا الممر. وكان لحكم المرابطين على درعة الفضل في استقرار عدة قبائل بالواحة ودخولهم في الإسلام.

وقد أُجريت أبحاث أركيولوجية بالمنطقة في سنوات الخمسينيات من القرن العشرين، وكشفت عن حقيقة البقايا الموجودة والتي تمثل الحصن المرابطي الذي يرجع تاريخه إلى حوالي ألف سنة، والذي ربما أنشئ بموازاة مع تأسيس مدينة مراكش.

ز) قصبة آيت بنحدو:

تعد قصبة آيت بن حدو الواقعة على بعد 30 كيلومترا شمال شرقي مدينة ورزازات، واحدة من أهم وأشهر القصبات بالجنوب المغربي. وهي تمتاز بنمطها الهندسي الرائع، فضلا عن كونها واحدة من هذه القصبات التي استطاعت أن تتحدى عوادي الزمن، وقساوة الظروف المناخية وتدخل الإنسان.

وبالنظر لما تتميز به هذه القصبة من جمالية معمارية استثنائية، قررت منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم "اليونسكو" منذ سنة 1987 إدراجها ضمن لائحة المواقع المصنفة تراثا إنسانيا. ويعتقد أن أمغار بن حدو، الذي تحمل القصبة اسمه كان يسكن المنطقة إبان فترة حكم الدولة المرابطية في القرن الحادي عشر الميلادي، وكانت القصبة تشكل محطة ضمن مسار القوافل التجارية التي كانت تربط بلاد السودان بمراكش عبر وادي درعة و ممر" تيزي ن تلوات" بالأطلس الكبير.

ك) قصبات أخرى:

- **قصبة تاكرارت:**

ارتبط اسم مدينة مكناس في البداية بقبائل زناتة الأمازيغية التي استوطنت وسط المغرب وسهل سايس وخصوصا على ضفاف وادي بوفكران ووادي وسلان. ولمراقبة هذه القبائل والتحكم في سهل سايس والطرق التجارية أنشأ المرابطون قصبة تدعى "تاكرارت"، كما شيدوا مسجد النجارين و أحاطوا المدينة بسور في نهاية عهدهم.

- **قصبة تادلة :**

يقول عنها البيدق أنها من بين الحصون المرابطية[1]. وجاء عند صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار خلال القرن الثاني عشر الميلادي أن مدينة تادلة هي مدينة قديمة فيها آثار للأول وبنى فيها الملثمون حصنا عظيما منيعا وهو الآن معمور فيه الأسواق والجامع والبلد كله كثير الخيرات والأرزاق وأحاطت به القبائل من كل الجهات[2].

---

1) البيدق: المصدر السابق (ص 92)

2) مجهول: **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**. تحقيق سعد زغلول عبد الحميد. الدار البيضاء، دار النشر المغربية 1985 (ص 126)

- **قصبة أدخصال** : حصن يقع بجبال الأطلس المتوسط بالقرب من مدينة خنيفرة وقد شيد من طرف السلطان المرابطي يوسف ابن تاشفين.

خلاصة:

انتقل مفهوم الرباط عبر تاريخ المغرب من التحصين ومدافعة العدو إلى قلعة متقدمة في الفتح وتوسيع دائرة دار الإسلام، ثم إلى محطة أساسية للمراقبة، وأخيرا إلى خلوة للتعبد والمتصوفة. وقد اعتمد المرابطون الصنهاجيون أو الملثمون، منذ بداية دعوتهم على يد زعيمهم الروحي عبد الله بن ياسين، على مبدأ الرباط والمرابطة. هذا المبدأ انتقل مع تطور الحركة المرابطية من مجرد تلقين للتعاليم الدينية إلى فكر سياسي وعسكري يراد به التحصين والمدافعة، بل والمحافظة على أمن تنقل ليس فقط الجيوش المرابطية من الجنوب نحو الشمال والعبور نحو الأندلس، وإنما أيضا على ضمان تدفق تجارة القوافل التي كانت بمثابة المورد الأساسي والضروري لخزينة الدولة المركزية في تمويل عملياتها العسكرية.

ولبلوغ هذه الأهداف شيد المرابطون العديد من الرُبُط التي يطلق عليها بالمغرب الحصون أو القصبات أو القلاع على طول جبال الأطلس لمراقبة الممرات الإستراتيجية، مما كان له الأثر الكبير في نجاح مشروعهم السياسي والعسكري المتعلق بتوحيد بلاد المغارب والأندلس تحت سيادتهم ولو إلى حين، وهو نفس التخطيط الذي اتبعه خلفهم الموحدون.

البيبليوغرافيا:

1. بالعربية:

- ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي: **صورة الأرض**. بيروت، مكتبة الحياة، الطبعة الأولى 1979.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: **المقدمة**. بيروت، دار القلم، الطبعة الأولى 1978.
- ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي: **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي** تحقيق أحمد التوفيق. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس "نصوص ووثائق 1" 1984.
- ابن عبد الله، عبد العزيز: "معطيات الفن الإسلامي في المغرب". **مجلة المناهل**. ال عدد الثالث 1956.
- ابن عذاري، أبو العباس المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** [قسم الموحدين] بيروت، دار الثقافة 1985.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**، بيروت 1997 الجزء 7 حرف الطاء.
- البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد: **كتاب المسالك والممالك**. بيروت، دار الغرب الإسلامي 1992.
- البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي: **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**. الرباط، دار المنصور 1971.
- حمام، محمد: **جوانب من تاريخ وادي دادس وحضارته**. الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية 2002.
- مجهول: **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**. الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة 1979.
- مجهول: **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**. تحقيق سعد زغلول عبد الحميد. الدار البيضاء، دار النشر المغربية 1985.
- مرعي، حمدي: **تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين –دولة علي بن يوسف المرابطي–**. الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1986.
- الوزان، محمد بن الحسن الفاسي: **وصف إفريقيا**. تحقيق وترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. الرباط، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، الجزء الثاني 1982.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن وحيد الكاتب: **كتاب البلدان**. تحقيق دي كوخ، القاهرة، المطبعة الحيدرية 1957.

2. بالفرنسية:

- De Foucauld, Charles: «reconnaissance au Maroc -1883) (1884», **Les Introuvables**. Paris, éditions d'Aujourd'hui 1985
- Lévi-Provençal, Evariste : « les ruines almoravides du pays de l'Ouergha », ***Bulletin Archéologique***, 1918.
- Terrasse, Henri : « la forteresse almoravide d'Amergou », ***Al Andalus***. Tome XVIII, 1953.